مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 12 عدد: 3، سبتمبر 2023
ص: 334 - 349 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

شعر التصوف في المغرب الأوسط القديم بين الإتباع والاختلاف

Sufi Poetry in Ancient Central Maghreb (Maghreb al-Awsat) .Between Following and Divergence

د. الوردي غنيمي *
louardi Ghenimi
جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)
Abbes Laghrour University of Khenchela (Algeria)
lghenimi@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2023/02/04	تاريخ القبول: 2023/04/23	تاريخ النشر: 2023/09/02

مُلخّص البحث

تطور الفكر الفلسفي عند علماء المغرب الأوسط(الجزائر)، فتعددت قراءاتهم النقدية لفكر الغزالي والمحاسبي وغيرهما،كما أنهم لم يتمسكوا بالفكر الأندلسي التجريدي في الوحدة والحلول التي جاءت في الفكر الفلسفي لابن رشد وابن دهاق وغيرهما.

يأتي هذا المقال ليميط اللثام عن الفكر الصوفي في المغرب الأوسط، ومدى مثاقفته مع المشرق الإسلامي والمغرب والأندلس، في منهج وصفي، متتبعا أهم الشعراء في المغرب الأوسط، سواء منهم من تخصص في الزهد؛ وهي درجة من التعبد وترك ملذات الدنيا وذم التعلق بها وذكر الآخرة، أو التصوف كدرجة من التعبد الفلسفي الذي يعتمد على العمق والرمز في أدبياته،ومدي واستقلال الفكر الصوفي الجزائري بعد أن استفاد من المشرق والمغرب الأقصى والأدنى. انطلاقا من التساؤل، هل اكتفى شعراء المغرب الأوسط بالاحتذاء بشعراء المشرق الإسلامي والأندلس، أم أنهم اسطاعوا التميّز خاصة في غرض الزهد والتصوف؟ ليصل المقال إلى أن شعر التصوف في الجزائر بدأ مرافقا للشعر المشرقي والأندلسي، ليستقل بخصائص تميزه عن التصوف فيهما.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط، تصوف، فكر فلسفي، أندلس، مشرق، تعبد .

Abstract:

The article seeks to shed some light on to what extent the Sufi thought in Central Maghreb, though benefiting from Sufism in the East or the Islamic West, remains independent. In a descriptive approach following the most important poets in Central Maghreb, this article tends to unveil the Sufi thought there and the extent of its acculturation with the East, Islamic West and Andalusia. The

* الوردي غنيمي. lghenimi@yahoo.com

main question of this research is, did the poets of Central Maghreb follow suit the poets of the East and Andalusia, or were they able to distinguish themselves and diverge from the previous thought, especially in the purpose of asceticism and mysticism?

There will be reference to people specialized either in asceticism, which is a degree of piety leaving the pleasures of the world, denouncing attachment to them and holding on the afterlife, or in Sufism as a degree of philosophical piety that depends on the depth and symbolism in its poetics. Finally, the article concludes that Sufism in Central Maghreb started loyal to Eastern and Andalusian poetry, but became independent holding characteristics distinguishing it from Eastern and Andalusian Sufism.

Keywords: Central Maghreb (Maghreb al-Awsat); Sufism، philosophical Andalusia ; Bright، Worship .

مقدمة :

لم يصلنا من شعر المغاربة من فترة الفتح وما بعدها إلا القليل للأسباب عدة،وما وصلنا من شعر المغربي القديم يبدأ من عصر الدويلات- الأغلبية والرستمية والمرنيين-، فاشتهر في ظل هذه الدويلات أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان دوود الصواف أبو عقال غليون بن حسن بن غليون، اللذان عاشا في ظل الدولة الأغلبية،وبكر بن حماد شاعر الدولة الرستمية، ومالك بن المرحل شاعر الزهد والتصور في الدولة المرينية، ليتطور في عهد الحضارات التي قامت في هذه البلاد، كالدولة الفاطمية والمرابطية والموحدية، ثم الرجوع مرة أخرى إلى الانقسام والاستقلال بدويلات عاشت قرونا لتندثر مرة أخرى وتسقط تحت وطأة الحكم الجديد .

كان السبق في البدايات للثقافة المشرقية التي كانت المنوال الذي نسج عليه الشعراء المغاربة،قبل أن يستقلوا بخصائص نابعة من تراثهم وثقافتهم وبيئتهم وجماليات المغرب القديم،فبرزت الشخصية المغربية بثلة من الشعراء، تركوا بصماتهم في تاريخ الأدب المغربي خاصة والعربي عامة.

كما كان الأندلس نافذة للشعراء المغاربة للتأثر والتأثير،مع محافظة الشعراء المغاربة على المضامين الشعرية التي يتميز بها المغرب عن بقية البلاد الاسلامية،فابدعوا في جل الأغراض الشعرية ومنها غرض الزهد والتصوف.

فالنزعة الزهدية ومعاناتها الفكرية والروحية واكبتها شعرية صب فيها الزهاد مواجدهم وقرائحهم، "وأصبح بذلك (الزهد)فنا من فنون الشعر، راج على ألسنة الشعراء في كثير من الآداب"[1]، ولم يشذ الأدب المغربي القديم عن الشعر العربي عامة وشعر الزهد خاصة،بعد أن عم في نفوس الشعراء المغاربة الدعوة إلى ترك الدنيا، والمجاهدة في سبيل الله،والانقطاع للتدين والتفرغ للعبادة، فأوغلوا في التدين، وغرقوا في الروحانيات، لكن بخصوصة مغربية تشكلت في ظل الدويلات التي نشأت في المغرب،ولعل كثرة الزوايا وانتشارها في الجزائر ساهم بقسط وافر في انتشار الفكر الصوفي فيها.

1-حفريات ظهور شعر الزهد والتصوف في الشعر المغربي القديم

ظهرت الحركة الزهدية في مهد ها في مدينة القيروان بعد الفتح الإسلامي للمغرب القديم، وبعد أن تمكن السكان من تعاليم الدين وحفظ القران الكريم والتضلّع في اللغة العربية،فقد لبس إسماعيل بن عبيد جبة من الصوف معلنا زهده في هذه الدنيا وتركه ملذاتها، كما هجر خالد بن محمد بن عمر التيجيبي القضاء وعفّ جمع المال، "بهذا بدأت الحركة الزهدية تتشكل في المغرب لتتطور فكريا وفلسفا وتتحول إلى حركة التصوف بفلسفتها ومصطلحاتها وخيالاتها"[2]،وقد مر ظهور ازهد والتصوف في المغرب القديم بعدة مراحل أهمها :

ا - مرحلة الميلاد وتمظهرت في ترك ملذات الدنيا، والتسامي عن الحياة المادية.

ب – إغراق الزهاد في التقشف وبعدهم عن الحياة العامة،والتحول من مرحلة الزهد إلى التصوف بما فيه من طقوس وخيالات.

ج – المرحلة الأخيرة تشكلت فيها الفرق الصوفية والخوض في الكرامات، وتشكل التصوف الفلسفي.

تتكشف أسباب ظهور هذا التيار نتيجة لأسباب دينية واجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية، من أهمها:

1-التأثر بالزهاد المشارقة والاحتكاك بهم ؛سواء بالزيارات الخاصة أو في الحج .

2- ظهور تيارات ماجنة بين الحكام والأمراء،فكان الزهد ردّة فعل لهذا السلوكات التي تتنافى والدين الإسلامي.

3- "الميل الفطري لأهل المغرب إلى الترفع عن الانغماس في المجون والاستجابة للنزوات."[3]

فقد كانت بدايات الزهد في الشعر المغربي القديم معتدلة التوجه، تحذر من إغراءات الدنيا وملذات الحياة، وصروف الدهر وغدر الزمن، وتقلبات الدنيا وزوالها، يقول أبو جعفر أحمد سليمان داوود الصوفي الربعي:

أرى الدنيا تغُمُرها الليالي وأياما مؤلفة شهورَا

أرى يوما يجيئ بكل خيرإ ويوما بالحوادثِ مُسْتَطيرَا

كذا أحوال دهركَ حالٌ آمنٌ وحالٌ يُجْزِعُ البطلَ الجسورَا[4]

يكاد الشعراء الزهاد أن يُجمعوا على مصطلحات وكلمات لايخلو شعرهم منها، مثل الدنيا، الدهر،الحياة الموت، وهي مكامن الداء عند الزهاد، فإقبال الناس على الدنيا وصراعهم عليها سبب في هلاكهم يقول الشاعر سابق المطماطي [5]:

يخادع ريب الدهر عن نفس الفتى سفاها وريبُ الدهر عنها يخادعه

ويطمعُ في سوف ويُهلك دونها وكم من حريصٍ أهلكته مطامع[5]

ويقول في رائيته :

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت إذا انقضى سفر منها أتى سفرُ

لها حلاوة عيش غير دائمة وفي العواقب منها المر والصبرُ

قد يُوبق المرءُ أمر وهو يحقرهُ والذي بالنفس يغي وهو يحتقرُ

لايُشْبِعُ النفسَ شيءٌ حين يحرزه ولا يزال لها في غيره وطَرُ

ولا يزال وإن كانت فيها سعة لها إلى الشيء لم يظفر به نظر

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلف في الخدم متى إلى لذاتها صغرُ

لا أرى أثرا لذكر في خلدي والحبل في الحجر القاسي له أثرُ[6]

النظرة إلى الحياة والموت، والهاجس الداخلي بزوال الدنيا وفناء الإنسان، حقائق غابت على الإنسان، وحلاوة العيش فلا تصمد أمام نوائب الدهر،وتكون النهايات مؤلمة مرة، فالرغبة قوية للخروج من أسر الدنيا ولذاتها، والحيرة تكمن في – متى – السائلة عن الاستمرار في الغي، فالفعل لم ينجز في ذات الشاعر بل

سيبقى معلقا بين الباقي من الزمن والذات التواقة للزهد، بعد أن تجلت الحقائق وآلَ كل شيء إلى غيرك بعد مماتك، فكان الجواب لـ -متى - يتهي بانتهاء الحياة وبزوال ذكرك ونسيان فضائلك وفناء جسمك، ووقوفك وجها لوجه أمام أعمالك التي ادخرتها لآخرتك،يقول الشاعر أبو عقال منفرا من الدنيا ومحذرا من التمسك بملذاتها الزائلة:

ألا فعلى الدنيا عَنَاءٌ يشُوبُهُ طَلاقي لها ماساعدتني البصائرُ

فإذا أقْبَلَتْ يوما علي بودها فإني لما تُولي البرِّ كافِرُ

لعمرك ما في الدنيا شيءٌ أريدُهُ سوى أنها نُزُلاٌ وأني مسافرُ[7]

وتوقف الشاعر المغربي عند مآل الإنسان ومصيره بعد موته، بعد حياة مليئة بالملذات، ليتحول في صورة درامية فيُحمل على الأعناق ممددا ليبقى في قبره وحيدا مع أعماله، فالزاد هو الحكم بين الإنسان ومصيره، يقول بكر بن حماد التهرتي :

زرنا منازلَ قوم لنْ يزورُنا أنا لفي غَفْلة عما يُقَاسُونا

لو ينطقون لقالوا الزادَ ويْحَكُمْ حلّ الرحيلُ فما يرجوا المُقيمُونا[8]

وقد سيطرت فكرة الموت على عقول الزهاد وأثارت أشجانهم، فدفعتهم إلى التخلي عن متع الدنيا والتركيز على نهاية الإنسان ومصيره، يقول الشاعر ابن الخراط:

قالوا صف الموت ياهذا وشدّتَهُ فقلتُ وامتد مني عندها الصوت

يكفيكم منهُ أن الناسَ إنْ وصفوا أمرا يُروعهم، قالوا :هو الموت[9]

ومزج شعراء الزهد بين النظرة إلى الموت والآخرة ومصير الإنسان وترك ملذات الدنيا، وبين الحكمة التي تعلم الإنسان تجارب الآخرين أو تبين حقائق وسلوكات تؤدي إلى الحياة الكريمة،والكسب الحلال والرضا بالقضاء والقدر يقول أبو بكر بن قسُّوم:

عليك بالقصد فيما أنت كاسبه فأفضل الناسِ عبدٌ طابَ مكسَبُهُ

لايستفزنك حرص ولا طمعٌ فالرّزْقُ يَطْلُبُنَا لا نحن نَطْلُبُه[10]

حرص الخطاب الزهدي المغربي على كشف الظواهر الاجتماعية، والدعوة إلى الانعزال عن الناس لنأمن شرهم، يقول أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الغساني:

أجانبُهم سِلْما لِيَسْلمَ جانبِي وليسَ لِحِقْدٍ في النّفُوسِ ولا بغضِ

تَخَلّيْتُ عن قومي ولو كان ممكن تَخَلّيْتُ عن بعضٍ لِيَسْلَمَ لي بَعْضِ[11]

يعود الزهاد إلى التذكير بالأمم السابقة، ومصير الشعوب والحضارات وزوالها،وأخذ العبرة من زوالها ، وهلاك ملوكها ودرس آثارها، يقول محمد بن حسن القلعي:

الخيرُ أصدقُ في المرأى من الخَبَرِ ممهّد العُذْرَ ليس كالأثرِ

وأعْمَلْ لأخرى ولا تَبْخَلْ بمكرُمَةٍ فكل شيء على حدٍ إلى قَدَرِ

وخُلْ عن زمَنٍ تُخْشَى عوَقِبَهُ إنّ الزمانَ إذا فكّرْتَ ذوغيّرِ

ياوَيْحَ من غيّرَهُ دهرٌ فسرّ به لم يُخْلص الصّفْوإلا شيب بالكَدَرِ

ولْتَفْتكِرِ في مُلُوكِ العُرْبِ من يَمَنٍ ولْتَعْتَبِرْ بملوك الصيم من مُضَر

أفناهم الدهر أولا هُم وآخرهُ لم يبقَ منهم سوى الأسماءِ والسيّر[12]

وسار الشاعر محرز بن خلف بن رزين على هدي العبرة من الأطلال الخالية من ساكنيها، لأن البلى سحب أذياله عليهم،فتساقطت أحجارهم فأصبحت ديارهم خالية، بعد أن كانت عامرة، وبُليت أجسادهم بعد أن كانت مليئة بالحركة والنشاط يقول:

أنظر إلى الأطلال كيف تَغَيّرَتْ من بعد ساكنها وكيف تنكرتْ

سحب البلى أذياله برسومها فتساقطت أحجارها وتكسرت

ومضت مجامع أهلها لسبيلهم فتغيّرت أخبارهم وتنكرت

آكل التراب لحومهم وعظامهم فتمزقت أوصالهم وتفطرت [13]

لقد انتشرت الحركة الزهدية في المغرب لتتطور فيما بعد إلى التصوف خاصة في القيروان، مهد العلم والثقافة والتطور والتأثير والتأثر، فلمع اسم علي شقران القيرواني (توفي سنة 186ه)،الذي ذاع صيته في المغرب والمشرق فقصده المتصوفة من المشرق والمغرب، ولعل أشهرهم ذو النون المصري (توفي سنة 245ه)، الذي قال عنه "أقمت على بابه أربعين يوما على أن يخرج من منزله إلى المسجد، فكان يخرج في وقت كل صلاة ويرجع،لايكلمني ولا يكلم أحدا"[14] ولما عاد إلى المشرق ظل يردد أقوال سيده شقران، ويذكر صفاته ويمجد خصاله.

لقد خرج التصوف من المعاني البسيطة للزهد، الذي غالبا مكان يدور حول مجاهدة النفس والتذكير بالآخرة،ونبذ الدنيا وزخرفها وملذاتها، إلى المعاني الفلسفية المليئة بالرمز والإشارة والغموض، وانفراده بالألفاظ الخاصة والأساليب المميزة والمصطلحات التي لا يفهم معناها إلا القلة، كالحب والخمروغيرهما من المصطلحات التي عُرف بها التصوف العربي عموما.

وكانت بداية القرن الخامس الهجري نقطة تحول الفكرة من الزهد إلى التصوف، الذي يُعتبر أشد عمقا وانعزالا من حركة الزهد، فانتشر في المغرب كما هو الشأن في المشرق،بعد أن تأخر عن الظهور في المغرب والأندلس، بالرغم من السبق الذي أخذه المشارقة في التصوف ، فقد فظهرت "أفكار البسطامي وحسن بن منصور الحلاج، وغيرهما"[15]،وتجذر مفهوم الحب الإلهي الذي يقول عنه الحلاج "إن جوهر الذات الإلهية هو الحب، وبالحب تجلى لنفسه بنفسه"[16]، فأصبح الحب الإلهي هو المركز الذي يحوم حوله المتصوفة، لاسيما الشعراء منهم، فارتقى معظمهم إلى الإحساس "بعالم الملك والملكوت، والاستغراق في عظمة الخالق، ومشاهدة الحق بعين البصيرة"[17] وإن كان البعض لايفرق بين الزهد والتصوف، فإن ابن الجوزي يفرق بينهما فيقول في تعريف التصوف"التصوف مذهب معروف عند أصحابه لايقتصر فيه على الزهد،بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه"[18]،كما يسمي أبن عربي الزهد" باسم العلم الرسمي، والتصوف باسم العلم الذوقي"[19] وإن كان الزهد قد لاقى رواجا بين المغاربة كما سلف الذكر، فإن التصوف واجه معارضة خاصة من فقهاء المالكية في ظل حكم الدولة المرابطية السنية خاصة في بدايات نشأتها، ولم يمنع هذا العداء للمتصوفة والتصوف من ظهور هذا التيار، كابن العريف الذي استدعاه السلطان علي بن يوسف بن تاشفين لملاقاته بإيعاز من الفقهاء لمناقشته في أفكاره الصوفية، إلا أنه توفي قبل لقائه بالسلطان،ولما قامت الدولة الموحدية فتحت الباب أمام المتصوفة والفلاسفة ليساهموا في النهضة الفكرية للدولة، يقول عبد الله كنون "لقد كتب ابن عربي كتابه الفتوحات المكية في العهد الموحدي فلم يحرك الفقهاء ساكنا"[20]، فلم يستو التصوف الفلسفي على سوقه في المغرب إلا

في بداية القرن السادس الهجري على يد الشريف الصنهاجي ، ثم نما وازدهر وأخذ سماته المميزة على يد ابن عربي، الذي "عُد أعظم صوفي عرفه عصر الموحدين بالأندلس "[21].وإن كان شعر المغاربة لم يخرج من الزهد إلى التصوف بصفة قطعية، بل تراوحت القصائد الشعرية بين الزهد والتصوف، خاصة في بدايات ظهور فلسفة التصوف، وحركة الحب الإلهي كما ماجاء في ديوان ابن عربي ((ترجمان الأشواق)) [22]، فعبر المتصوفة عن الرغبة الملحة في الإتحاد والحلول مع وفي الله، فتحول الصوفي من العالم المادي إلى العالم المقدس، ولم يسلم رحم المغرب القديم من ولادة متصوفة عُرفُهم الابتهال والترميز، أسوة مرة بالمشارقة وأخرى بالفلاسفة المغاربة، كما كان التصوف المغربي ردة فعل روحي على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في بلدان المغرب القديم خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين.

فقد توالت المصنفات الصوفية فترجم عدد كبير من مصنفات المتصوفة المغاربة، وذكر أخبارهم وأشعارهم، ككتاب (عنوان الدراية) لأحمد الغبريني، وكتاب التّشوّف إلى رجال التصوف)لابن الزيات،وكذلك كتاب (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) لابن مريم التلمساني، وغيرهم من المصنفات التي أرّخت للمتصوفة والزهاد في المغرب القديم، سواء من كانوا زهادا وتقيدوا بالكتاب والسنة وذموا الدنيا بزخارفها ومغرياتها، وذكروا الآخرة بدوامها وجزائها وجناتها ونعيمها، كابن النحوي وأبي مدين وغيرهما ممن ذكرنا بعض أشعارهم، أو كانوا متصوفة جنحوا إلى الفلسفة والرمز والتشوف فتأثر بهم قسم من المتصوفة في المغرب، "كما تعدى تأثيرهم إلى المشرق العربي، كابن عربي وابن سبعين والششتري وأحمد الحرالي التيجني "[23]وغيرهم.

وقد "شهدت الحركة الزهدية في بداية القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري ظاهرة التصوف نتاج إرهاصات دينية واجتماعية واقتصادية، تخمرت عبر قرون تمخض عنها ميلاد الحركة الصوفية السنية"[21]في المغرب الأوسط، فأصبح اهتمام الناس به متزايدا يوما بعد يوم.

وقد شاع فن الحجازيات في المغرب الأوسط، فلجأ الصوفية إلى النظم عندما تحول حائلة بينهم وبين أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فيعبرون عن أشواقهم وحنينهم إلى البقاع المقدسة. فمن المتصوفة الذين عُرفوا في بجاية أبي عبد الله محمد بن صالح الشاطبي (ت 699 هـ - 1301 م)، يقول متشوقا إلى زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم:

أرى العمر يفنى والرجاء طويل وليس إلى قرب الحبيب سبيل

حباه إله الخلق أحسن سيرة فما الصبر عن ذاك الجمال جميل

متى يشفى قلبي بلثم تربه ويسمح دهر بالمزار بخيل[24]

وفي الغرض نفسه يقول أبو عبد الله محمد بن الحسين التميمي(ت 673 هـ - 1275

وأني أدعوا الله دعوة مذنب عسى أنظر البيت العتيق وألثم

فيا طول شوقي للنبي وصحب يا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم

إليك رسول الله أرفع حاجتي فأنت شفيع الخلق والخلق هيم

فقد سارت الركبان واغتنموا المنى وأني من دون الخلائق محرم[25]

ومن القصائد التي اشتهرت ببجاية للصوفي أبو عبد الله محمد بن الحسين بن ميمون القلعي ، والذي اشتهر بغزارة إنتاجه الشعري حتى قال فيه الغبريني: "له شعر كثير شرع في تدوينه ولو تم تدوينه لكان في مجلدات كثيرة"[26] ، وله في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم أشعار كثيرة منها:

أمن أجل أن بان فؤادك مغرم وقلبك خفاق ودمعك يسحم

وما ذاك إلا أن جسمك منجد وقلبك مع من سار في الركب متهم[27]

ويبرز الشاعر الزاهد عبد الرحمان الفازازي (ت 627 هـ - 1270 م) بتلمسان بقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر صفاته والتذكير بمعجزاته والشوق إلى زيارته، ومن كثرة شعره في الرسول صلى الله عليه وسلم لقب بصاحب الأمداح في سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال فيه المقري: "له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع خضع لها البيان وسلم أعجز بتلك المعجزات... وأوجز في تحبير الآيات البينات وجلا سحرا ورفع للقوافي راية"[28] ، ومن شعره قوله:

كملت بنعت محمد خير الورى غرر القصائد تلها وحجولها

واختص دون الأنبياء بدعوة وسمع العباد عمومها وشمولها[29]

ويقول الشاعر المنداسي الذي عاش في تلمسان معبرا عن حبه في قالب صوفي يرسم علاقته الجوهرية بخالقه :

كيف يسلو من كان للحب دالا وتسربل أنينه حيث دارا

أول الأمر كان للحب جارا فاستوى الحب بعد ذلك فخارا[30]

وما يميز أشعار الصوفية في هذه الفترة سهولة الألفاظ وبساطة الأسلوب،ماسهل تناقلها بين الناس فأضحت وردا يردده العامة في المناسبات الدينية،حتى أصبح إرثا شعبيا اجتماعيا كالأذكار والتسابيح، قبل أن يتحول إلى لغة خاصة وألفاظ عرفها الشعر الصوفي فتميز بها كلغة خاصة بلسان الصوفية. وفلسفة يصعب فهمها إلى بالرجوع إلى تعاليمهم وشروحاتهم.

لقد تحول التصوف السني في المغرب الأوسط من الممارسة النظرية إلى التطبيق العملي، فقد بدأ مع الخاصة من الناس وتحول إلى الممارسة العامة، فزادت الرباطات والزوايا في المدن والأرياف "فظهرت عدة طرق منها القادرية والشاذلية والرحمانية، مما أدى إلى ترسيخ الوعي الديني كقوة حفاظ وتغيير"[31] .

شعر التصوف في المغرب الأوسط بين الإتباع والإبداع3 -

امع المشرق.

استفادت الدول الإسلامية من بعضها منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فقد اندمجت بلاد المغرب الأوسط في الجغرافية الثقافية عامة والأدبية خاصة لدول المشرق الإسلامي، فكان التفاعل بين الدول الإسلامية قائما على الاتصال والتواصل، خاصة أن المغرب الأوسط كان وسيطا بين المشرق والمغرب من جهة والأندلس من جهة أخرى،ناهيك عن انفتاح مدن مثل تاهرت وتلمسان والمسيلة وقلعة بني حماد وورجلان على الصحراء ومدن بلاد المشرق والصحراء " بحكم العلاقات التجارية وروابطها الاقتصادية ببلاد السودان"[32].

من أوائل شعراء المغرب الأوسط الذين احتكوا بالمشرق من خلال رحلاته الشاعر بن بكر بن حماد، فقد تأثر برحلاته في المشرق بشعرائها وعلمائها وصوفيتها"[33] ومن أشهر الكتب تأثيرا في صوفية المغرب الأوسط "كتاب الرعاية لحقوق الله للحارث أسد المحاسي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والرسالة القشرية لأبي القاسم القشري، وإحياء علوم الذين لأبي حامد الغزالي[34] "،وقد استنسخ أبو الفضل النحوي إحياء علوم الدين في ثلاثين جزا، فإذا دخل رمضان قرأ كل يوم جزءا"[35] وقد قال قولته التي تتماها تماما مع أفكار الإحياء فقال:"وددت أني لم أنظر في عمري سواه[36] "،وقد نسخ أبو الحسن بن علي المسيلي كتابا على منوال الإحياء سماه"التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات"[37]" حتى لُقب بحامد الصغير، فأصبح الكتاب رائجا في بجاية حتى فاقت شهرته الأجيال.

فقد ساهمت الرحلة في تفاعل صوفية المغرب الأوسط مع متصوفة المشرق؛ خاصة رحلات الحج، والرحلات العلمية التي كان يسعى المغاربة طلبا للعلم لإشباع نهمهم الروحي، فنشأ عن هذا التأثر والتأثير نمطين من الصوفية:

1- نمط جال في حواضر المشرق وحضر مجالس العلم والعلماء، ونقل مصنفات العلم والمتصوفة واستثمرها عند عودته من رحلاته، مثل المتصوف أبو مدين شعيب، الذي تغزل بالذات الإلهية ولم يكشف عن حبه لأنه حب لذات الحب فقال:

أحبُّ حبيبا لاأسميه هيبة وكتْمُ الهوى للقلب أنكى وأنكأ

أخاف عليه من هوايَ فكيف أغار عليه سواي وأبرأ [38]

يسعى الصوفي إلى الكمال، والسفر أكثر حضورا عندهم في الوصول إلى الكمال الروحي، لإخراج المعاني الصوفية من المجرد إلى المحسوس، يقول أبو مدين شعيب:

ركِبْتُ بحرا من الدموع سفينهُ جسمي النحيل

فمزقتْ ريحُهُ ضلوعي مد عصف ساعة الرحيل[39]

ووظف الصوفية الحنين إلى لقاء الأحبة، والشوق إليهم، والرغبة للاتصال بهم سبيلا للوصول إلى الحضرة الإلهية ، يقول ابن الجنان:

وحيثُ تلك القبابُ البيضُ قد رفعتْ يرتاحُ من فوقها ذاك السنى البادي

بالله إن كنت خيمت عندهم بالمنحنى بين أنجاد وجواري [40]

يقول عبد الحق البجائي متغزلا بالحبيب الذي لا يضاهيه جمال البشر، وينكشف سر جماله في قلوب المحبين

سفرت على وجه الجميل فأسفرا وبدا هلال الحسن منها مقمرا

ودفت فكاشفت القلوب بسرها وسقت شراب الأنس منها كوثرا[41]

2 - صنف من المتصوفة هاجروا إلى المشرق واتخذوه سكنا، فقد كان دورهم فاعلا في حواضر ومساجد المشرق التي ارتادوها،"فافتكوا ثقة الوسط الفكري والثقافي في المشرق "[42]؛ سواء بدروسهم المباشرة في المساجد أو بمصنفاتهم التي ألفوها، أو في إقامتهم في المشرق أو قبلها في المغرب، ومن الشعراء المتصوفة الذين عادوا من المشرق بعد احتكاكهم بعلماء ومتصوفة المشرق زكرياء يحي بن زكريا السطيفي فقال:

أتَتْ والليلُ معدودُ الجناحْ تعودُ مُسهدا رطب الجراحْ
فقالتْ كيف أنت ولا جُناح فقلتُ العودُ يذهبُ بالجناحْ[43]

ب- مع المغرب الأقصى والأندلس–

تفاعل متصوفة المغرب الأوسط مع حقل التصوف القيرواني قبل سقوطها على يد الهلاليين، فقد ارتبط متصوفة المغرب الأوسط بأفكار الصوفية في القيروان، وشاركوا في سجالات المتصوفة والفقهاء الذي احتضنتهم القيروان، باعتبارها مركز إشعاع علمي في المغرب،فقد"ارتبطت مدينة طبنة في المغرب الأوسط بالقيروان "[44].

ومن المتصوفة الذين تأثروا بمدرسة القيروان الشاعر بكر بن حماد، وإسماعيل الزناتي وحبيب التنوخي والتميمي وغيرهم .

كما شارك المتصوّف الداودي المسيلي فقهاء المالكية في القيروان سجالاتهم ومناظراتهم في الأحكام القرآن، وغيره من الموضوعات التي كان محل اهتمام المتصوفة آن ذاك.

وبعد خراب القيروان هاجر معظم المتصوفة إلى قلعة بني حماد، لتصبح مركزا هاما للمتصوفة خاصة التصوف السني الفلسفي.

أما مع الأندلس فقد تحولت المثاقفة الصوفية من القيروان إلى الأندلس" بفضل غزارة الإنتاج الأندلسي، وكثرة شروحات المصنفات المشرقية من لدن الطلبة والمريدين"[45]، فكان التأثير والتأثر متبادلا ؛خاصة بعد أن تبادل المتصوفة والعلماء الزيارات طلبا للعلم والمعرفة كالحجاج بن يوسف الجزائري الذي أخذ عن ابن عربي، وهو تلميذ أبو حامد الغزالي أيضا،كما هاجر كثير من المتصوفة إلى بلاد المغرب بعد انهزام الدولة الموحدية في الأندلس، فاستقر بعضهم في بجاية وآخرون في تلمسان، "ومن أشهرهم ابن عربي الذي استفاد من لقاءاته ومناقشاته لعبد الله الطرطوسي"[46]، وساهم كتابه "مواقع النجوم " الذي ألفه في المريا قبل دخوله بجاية في التعريف بأفكاره واتجاهاته الصوفية،ولابد من ذكر كتاب "حب الله" لعبد الرحمان التجيبي في تعميق أفكار الصوفية وتجريدها، ومن الشعراء في المغرب الأوسط الذين أخذوا عن المتصوفة الشاعر الحرالي " مبدأ الإلوهية" فقال:

مست يدانا جواهر ركبتْ نفوس لنا لماصفتْ فتجوهرنا
فما السرّ بالمعنى وما الشمس قل لنا وماغاية البحر الذي عنه عبرنا[47]

ولما قدم الصوفي عبد الله الشوذري من مرسية اعتنق كثير من المتصوفة أفكاره واتبعوا طريقته، ومنهم الشاعر المتصوف ابن خميس التلمساني الذي قال عن الشوذرية :

وبدت على الشوذري فيها نشوة مالاح منها غير لمعة آلها

بطلت حقيقة وحالت حالهُ فيما يعبرُ عن حقيقة حالها[48]

وقد ساهم كتاب ابن سينا "الإرشاد والتنبيهات "الذي شرحه أحمد بن أحمد المالقي في بجاية من تعميق فلسفة التصوف ألإشراقي فيها،كما تأثر عفيف الدين التلمساني بابن عربي من خلال فكرة وحدة الوجود فقال:

شهدْت نفسك فينا وهي واحدةٌ كثيرةٌ ذات أوصاف وأسماء[49]

لقد تم التلاقح الأدبي بين المغرب الأوسط والمشرق الإسلامي والأندلس بواسطة المؤلفات الصوفية المشرقية والأندلسية، التي تداولها الصوفية في مجالسهم في تلمسان وبجاية وقلعة بني حماد، زيادة على تلك الهجرات لعلماء مشارقة إلى المغرب، والهجرة العكسية إلى المشرق للتزود بالعلم والحج.

كما يجب أن لاننكر دور القيروان في المغرب الأدنى التي أمّها أغلب المتصوفة المغاربة، سواء الأوسط أو الأقصى، ونذكر على سبيل المثال عبد الرحمان بن محمد التاهرتي وعبد الرحمان الخزار المعروف بالوهراني، الذي لازم الزاهد أبا العباس تميم بن محمد التميمي.

وقد انتقل مركز التصوف بعد خراب القيروان إلى مدينة القلعة ببني حماد، التي تحولت إلى حاضرة التصوف السني الفلسفي على طريقة أبي حامد الغزالي لما اضطربت الأوضاع في الأندلس، وهاجر كثير من المتصوفة إلى مدينتي تلمسان وبجاية، فاجتمعوا مع القادمين من المشرق، فاستقر المتصوف بن سعادة المرسي في تلمسان يشرح مصنفات الغزالي، التي تلقاها في مكة على يد تلميذ الغزالي علي بن عساس الغساني.

ومن تأثير المغرب الأوسط في غيره، نذكر مكوث أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمان الصنهاجي التلمساني في مدينة سلا في الغرب الأقصى مدرسا للفقه، وابن حجام التلمساني الذي استوطن في مدينة مراكش، كما نقل طريقة أبي مدين شعيب إلى المغرب الأقصى المغربي أبي داود وضاح الماجري، وفكان التماس المشرقي والمغربي والأندلسي لتتشعب المدارس الصوفية المغربية بعد ذلك إلى مدارس واتجاهات متشعبة، وكان بعض أفكارها انعزاليا متطرفا.

الخاتمة

لقد تطرق المقال إلى الشعر الزهدي و الصوفي في المغرب الأوسط، ومدى تأثره وتأثيره بالمشرق الإسلامي أو المغرب الأدنى والأقصى أو الأندلس،،فقد كان التأثير في بدايات بروز هذا الغرض عند شعراء المغرب الأوسط واضحا، فكانت رحلات الحج والزيارات سبيلا لتأثر الشعراء المتصوفة بالشعر المشرقي،ناهيك عن المصنفات التي يصطحبها هؤلاء إلى بلاد المغرب الأوسط،كما ساهمت هجرات العلماء والمتصوفة من الأندلس والاستقرار في بلاد المغرب خاصة مدينتي تلمسان وبجاية في الجزائر في التأثير المتبادل بين شعراء المغرب الأوسط وشعراء الأندلس.

وقد ذكرنا أهم الشعراء المتصوفة في المغرب الأوسط كما خرجنا بالملاحظات الآتية:

-ميل شعراء المغرب الأوسط للتصوف السني؛ الذي يُعنى بالسلوك والأخلاق .

- ركّز شعر الزهد في بداياته في المغرب الأوسط على ذم الدنيا والترغيب في الآخرة، والتذكير بالموت وطلب الغفران والدعوة إلى التوبة إل الخالق.

- تطور شعر الزهد ليتحول إلى المعاني الفلسفية والرموز الصوفية .

- نحا الخطاب الصوفي في المغرب الأوسط إلى الغموض يصعُب معه الفهم إلا بمعرفة المعجم اللغوي الصوفي،وإدراك لمدى عمق التجربة الصوفية.

-الجمع بين الزهد والتصوف يعكسه الزهد النبوي المالكي في المساجد والمرابطات.

- الجمع بين الميزات الخلقية والتعبدية، ويمثل هذا التيار الشاعر والزاهد أحمد بن صالح البجائي.

- ظهور التصوف العملي القائم على المجاهدات الصارمة، ويمثله الشاعر والقائد ومؤسس الدولة الموحدية عبد المؤمن الكومي .

-تميز شعر الزهد ببساطة ألفاظه وعدم الإفراط في الرموز والإشارات .

- تلون التصوف الفلسفي بالغموض أحيانا والإيحاءات الصوفية.

تطور شعر الزهد في الشعر الجزائري إلى شعر التصوف والتشوف وتوظيف الرموز العرفانية واللغة الصوفية.

هوامش

1-لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،تح،محمد عبد الله العنان، (1964) دار المعارف، القاهر،جمهورية مصر، ص58

2- الطاهر بوناب،التصوف في الجزائرخلال القرنين6و7الهجريين،12و13 الميلاديين،2004،شركة دار الهدى للنشر،عين مليلة، الجزائر،ص47.

3- عبد العزيز عتيق، محاضرات في الادب المغربي،1983،مطبعة مؤسسة الكرمة،عمان، المملكة الاردنية،ص90

4- ابن الصغير،أخبار الأمة الرستمية)–تح،محمد ناصر وإبراهيم بحاز، (1986)، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ، ص97

5-عبد الله كنون، سابق البربري، شاعر من المغرب،(1969)،مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق سوريا،،ص 6

6- المرجع نفسه،ص10

7 –ابن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان،،تح حسن يوسف خربوش،(1989)،مكتبة المنار،، ص94

8- الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد التاهرتي، هو ديوان شعري من111 صفحة مقسم إلى خمسة أقسام طبع سنة 1966 جمعه وشرحه محمد بن رمضان شاوش.

9-المقري، نفح الطيب في غصن أندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، (1998،دار صادر، ج4)، ص 315

10- المرجع نفسه، ص324

11- لمراكشي، الذيل والتكملة، تح إحسان عباس ومحمد بن شريفة، (2012)،دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1 ص245

12- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تح شوقي ضيف د.ت، دار المعارف ، مصر، ص 450.

13-محمد مفتاح، التيار الصوفي في الأندلس والمغرب -1981)، اطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية، ، ص159

14- المرجع نفسه، ص 185

15-الشريف محمد، التصوف والسلطة في المغرب الموحدي،(2004)،منشورات الجمعية المغربية للدراسات، الرباط المغرب، ص58

16-المرجع نفسه، ص59

17-الصغير عبد المجيد، تجليات الفكر الصوفي المغربي)، دراسات في المرجعيات،(2004)،مطبعة النجاح الجديد ، الدار البيضاء، المغرب،ص88

18- المرجه نفسه،ص.89

19- المرجع نفسه،ص94

20-المرجع نفسه،ص97

21 الطاهر بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الاوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (2009)،،رسالة دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط،–جامعة الجزائر، ص68

22- المرجع نفسه،ص25.

23-الطاهر بونابي،تاريخ التصوف في المغرب الأوسط،ص58

24- الغبريني،عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية،تح رابح بونار،،(1981،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر)،ص51

25-المصدر نفسه،ص56

26- المصدر نفسه، ص59

27-المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب،تح إحسان عباس،(1988)،دار صادر،بيروت،ص97

28- المصدر نفسه،ص99

29-الطاهر بوناب، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط،ص97

30- المرجع نفسه،ص99

31- الطاهر بونابي، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط،ص.123

32- المرجع نفسه،ص142

33- المرجع نفسه،ص146

34-المرجع نفسه،ص154

35- المرجع نفسه،ص159

36- المرجع نفسه،ص205

37- أبو مدين شعيب، الديوان، تح عبد القادر سعود وسليمان القرشي)، (2011،كتاب ناشرون، بيروت، لبنان،ص49

38- الغبريني، عنوان الدراية،ص67

39-ابو مدين شعيب، الديوان،ص 81

40- الغبريني، عنوان الدراية، ص302

41-المصدر نفسه،ص94.

42—المصدر نفسه،ص89

43- الطاهر بوناني، تاريخ التصوف في المغرب الأوسط،ص141

44-منجد مصطفى بهجت، الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد الطوائف والمرابطين، 1986)مؤسسة الرسالة ، بيروت، –ط1،ص87

45- المرجع نفسه،ص91

46- ابو عبد الله المالكي، رياض النفوس من طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهادهم وعلمائهم)، تح بشير البكوش (1981)، دار المغرب الاسلامي، ،ص182

47-المصدر نفسه،ص188

48-امحمد موسى باشا،العفيف التلمساني شاعر الوحدة المطلقة)،1982 منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ص58.

49-الطاهر توات، الحركة الصوفية في المغرب، ص59